

الإبداع السردي عند إبراهيم الكوني

الدكتور: بوسماحة موسى

جامعة طاهري محمد - بشار - الجزائر

إبراهيم الكوني مبدع متميز استطاع من خلال منجزه الروائي التطرق إلى تيمة الصحراء لا بوصفها تأثيثا للكتابة الروائية، بل إلى كونها تحمل القيم الإنسانية البكر، وهي الضامن لبقاء تلك القيم التي فقدتها إنسان المدن. وإن كان سرد الكوني في عمقه يتقاطع مع كثير من السرد الشفاهية والمكتوبة، فإن هذا التقاطع عصي على القارئ غير المتمرس، كون إبراهيم الكوني لا يعيد تلك السرد التي تراكمت في مخيلته باهتة قد عفى عنها الزمن بل يعيد صياغتها فتبدو وكأن القارئ لم يقرأها من قبل. فقصة قابيل وهابيل المعروفة في القرآن الكريم وفي علم اللاهوت لم يوظفها الكوني لإبراز فظاعة الجريمة وما يقترفه الإنسان في حق أخيه الإنسان، بل فظاعة جريمة الإنسان في حق أخيه الحيوان. فتأخذ القصة منحى آخر من خلال رؤية فلسفية لمفهوم الحياة والوجود والأخوة.

الكلمات المفتاحية : التراكم السردية: الصحراء: الكوني: الفلسفة: الوجود: القيم.

The Creative Narrative of Ibrahim Al-Kony

Abstract: Ibrahim Al-Kony is a famous author who, through his achievements as a novelist, managed to address the theme of the desert not as a furnishing of the scripture, but as an assumption of the primal human values. And it is the guarantor of the survival of those values lost by the urban man. If the narrative of Ibrahim Al-Kony, in its depth, intersects with many oral and written narratives, this intersection will become a hindrance to the inexperienced reader. The fact that Ibrahim al-Kony does not repeat those narratives that have accumulated in his faint imagination; he rephrases them in order to make the reader feels that he is reading them for the first time. The story of "Cain and Abel", known in the Qur'an and in theology was not used to highlight the atrocity and horror of crime and what can a man do to rape the right of his brother, but to focus on the horrible crime that can a man do for animals. Thus, the story takes a different philosophical vision of the concept of life, existence and brotherhood.

Keywords: Narrative accumulation, Al-Kony, philosophy, existence, values.

تاريخ تسليم البحث: 14 جوان 2017.

تاريخ قبول البحث: 24 جانفي 2018.

مقدمة:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الوقوف على ما أبدعه الروائي الليبي إبراهيم الكوني من سرد مميز في إنجاز الروائي، سرد وليد ثقافة واستغلال للموروث العربي قديمه وحديثه، الشفوي منه والمكتوب، والمطعم برؤى فلسفية.

وإن بدا للقارئ أن هذا السرد يتقاطع مع سرود سبق له وإن اطلع عليها، فإنه سرعان ما يكتشف أن ما يقرأه سرد مغاير استغل فيه صاحبه خلفيته المعرفية وأعاد صياغته صياغة متميزة. كما يقف القارئ على ثراء اطلاع الكوني واستغلاله لثقافات متباينة ومتعددة. وهو إذ يلجأ إلى أسطورة الواقع إنما يهدف من وراء ذلك إلى مزج الحلم بالحقيقة والواقع بالمتخيل بلغة شاعرية بحمولتها الرمزية ودلالاتها المعبرة عن رؤى فكرية وفلسفية لفهم الواقع اللامتناهي.

1- التراكم السردية والفلسفة

حين يغوص القارئ في نصوص الكوني الروائية يجد نفسه أمام فيض من القيم الإنسانية برؤى فلسفية تعيد طرح سؤال الوجود ومعنى الحياة. ويجد في " الصحراء " بكل مكوناتها الطبيعية والبشرية ما يعبر عما افتقدته الإنسانية من أسس وعلاقات لسر الحياة. فيعيد بعث الحياة فيها تخليلاً بالنبش فيما علق بذاكرة طفل طارق عايش الحياة البسيطة ولو لفترة قصيرة من العمر، وتسليح بالمعرفة الكونية عبر الدراسة والتجارب والأسفار، مكوناً زادا معرفياً متنوعاً، استثمره في كتاباته، مراكم ما قرأه من سرود في ثقافات مختلفة، لا ليعيد تلك السرود عن طريق ما يعرف بالتناسل، ولا يوظف الأجناس الأدبية الأخرى من أجل تأنيث نصه الروائي بل إن هذه السرود التي تراكمت في ذاكرة إبراهيم الكوني يعيد إبداعها فتبدو أصيلة لم يسبقه أحد إليها. إنه يبدع نصه السردية كما يبدع أسطوره. فقابيل ليس هو قابيل المعروف فيما ورد في القرآن الكريم وفي اللاهوت، بل هو قابيل الكوني كما ابتدعه بسميزات فنية وإن تقاطع مع قابيل التاريخ في بعض المميزات. والأساطير التي يوردها الكوني هي الأخرى تخضع للمسة من الكوني فإذا بها أساطير يخلقها تسهم في سرد يوظف كل أنواع السرود الغربية والعربية.

كل ذلك من أجل معشوقته الصحراء التي يعيد بعثها عبر معمار روائي فني يمتزج فيه الواقع بالخيال، والحقيقة بالأسطورة، وللقيم النبيلة والبداءة والحرية وحب الحياة في شكلها البدائي المفعم بالإنسانية مكانته الخاصة حيث اتحاد المكونات الطبيعية وتوافقها في توازن لا يخل بها ولا بالطبيعة التي تعيش فيها.

إن روحانية الفضاء الصحراوي، وعزلة الإنسان فيه، لا تبعث على التأمل فقط، بل تدفعه إلى البحث عن سبل الوجود والصراع من أجل البقاء. ومن ثم تصبح الطبيعة ومكوناتها

بما في ذلك الحيوانات، السند والمعين لمواجهة خطر الزوال والانقراض، فيتماهى الإنسان الصحراوي فيها وتتماهى فيه، لتصبح كل خطيئة في حقها إعلانا لإفلاس الإنسان وتيهه. إن فضاء الصحراء الذي ظل إلى حين قريب يُتطرق له في السرود على أساس المكان المقفر المخيف أو الفانتستيكي العجيب، لم يعد كذلك في كتابات إبراهيم الكوني بل هو عوالم متداخلة يعيد الكوني صياغتها في نصه السردي بالحفر في التاريخ والأنثروبولوجيا والأسطورة وفي الحياة الاجتماعية لسكانها، إنه مكان يعج بالحياة والقيم، ينفث على الأزمنة الغابرة ويعيش فيه الإنسان تحت ظل شمس محرقة، وجمال الليالي المقمرة والنجوم المتألثة، ومواجهة الموت يوميا في ظل شح عناصر الحياة حيث تتحول الطبيعة إلى معتقدات دينية وأساطير متعددة.

"فإن الكوني جعل الصحراء استعارة الوجود، بل مركز الوجود الإنساني كله، فكان متصوفا صحراويا أوقف أعماله عليها، باحثا عن لغز الوجود"⁽¹⁾.

ولضمان بقاء حكاية الصحراء وانتشارها يلجأ الكوني إلى أسطرتها: "لأن الأسطورة تخرجها من الخصوصية التاريخية إلى العمومية والتجريد بحيث يجد فيها الجميع تعبيرا عن قناعاتهم وتطلعاتهم وتكريسا للقيم التي يؤمنون بها"⁽²⁾، ولا يكتفي في كتاباته بأسطره الحكاية بل يدغم روح الفلسفة كمنطلق لإبداعه السردي متأثرا بالكاتب الروسي الكبير دوستويفسكي. وفي كتاباته يعتمد الكوني على مرجعياته الشفهية والمكتوبة التي اختزنها ذاكرته على مر عقود، ليعيد صياغة سؤال الوجود وحيرة الإنسان وصراعه الأزلي من أجل البقاء. ممطيا دهاليز الأسطورة ليفجر إبداعا متميزا.

وإذا كان هاجس الكتابة قد ظل يشغل الكوني ويدفعه للتعبير بمختلف الوسائل، فإنه لم يجد إلا الكتابة لمواجهة الغربة التي أسرته وأيقظت فيه الحنين إلى حياة الفطرة والبداءة، في مقابل حياة المادة، ليولد الابداع من معطف الفلسفة ويبني فرح الأسطورة التي تخلق عالما افتقده الإنسان بسبب جنونه وعدائه للطبيعة ولغيره من البشر. ليصنع من صحراء العطش عالما استعاريا ووطنا روحيا بلا حدود.

"ثمة حافز يدفعني منذ زمن بعيد، وهذا السر يتجول في داخلي ويفرض علي أن أحاول التعبير عنه، سواء بوسائل التعبير المباشر كالمقال أو الدراسة النقدية، أو بوسائل التعبير الفني كالقصة..."⁽³⁾.

فيجد في الكتابة متنفسا ووسيلة للإفلات من الواقع الجاثم بثقله وطريقا للثورة على الجمود والتسلط، والقدرة على محاربة النسيان، وإعادة صياغة التاريخ بروح صوفية وبرؤى فلسفية استمدتها من مخزونه العرفي والعلمي ومن الصحراء البكر التي مازالت تمتلك جوهر

الأبدان المرحلي محمد الكوني. مهلة فصل الخطاب

الحياة، وما زال الإنسان فيها يتمتع بالحرية ويواجه قدره وحيدا في منأى عما أحدثته الحضارة من هتك لأعراض الطبيعة والإنسان.

وإذا كانت الحياة في الصحراء جحيما كما يعبر عنه الكوني، فإن ذلك الجحيم الجميل لا يعد وأن يكون إلا جحيم الحرية وثمنها. ولا سبيل إلى النجاة من قسوتها وأخطارها إلا بالموت الذي يترى بالإنسان والحيوان.

"من أراد أن يعيش حرا عليه أن يقبل بالحياة في الجحيم. في الصحراء جحيم جميل لأنه جحيم الحرية، فهنا فقط عليك أن تدفع ثمن الحرية القاسي. عليك أن تتحمل المسؤولية كلها. تواجه الموت في كل لحظة، لأنك لا تنتظر إحسانا من أحد. تنتقل وحدك، وتقاتل مع الوحوش لتطعم نفسك، وتدافع عن نفسك بنفسك، وتواجه الخطر وحدك وتموت وحدك. كل هذا لأنك اخترت الصراط الصعب؛ صراط العزلة والحرية"⁽⁴⁾.

والصحراء هي الحرية وهي الموت بما يشكله الجذب من خطر ومع ذلك تحمل سر البقاء والوجود، لأن الحياة ستدب فيها كلما سقط المطر، وكلما توفر الماء.

"الحرية هي الصحراء، والصحراء هي الجذب الموت. إذن الحرية هي الموت وكلما انشق قلبها عن الخاطر الغامض تذكرت السيل المنتظر واستولت عليها الرجفة والنشوة، مع الوقت أصبح الخاطر في القلب مثل الوعد الجسيم سرها"⁽⁵⁾

وإذا كان الماء هو الحياة، فإن ندرته في الصحراء تجعل أهلها من أكثر الناس اقتصادا له وحماية لمصدره، فالظما يعني الزوال، وشح المطر في هذه المنطقة يعني المعاناة التي تفضي إلى انقراض الإنسان والحيوان وبالتالي انقراض قبائل الطوارق واندثار تاريخهم ومجدهم وتقاليدهم وهكذا يورد الكوني على لسان شيخ القبيلة دعوته إلى حماية البئر وصيانتها: "ف" البئر سر قوة القبيلة والبئر هو نقطة ضعفها أيضا"⁽⁶⁾

والماء هو حلم يقطع الطارقي من أجله المسافات كونه المادة التي تعطي للحياة معنى وتمنحها وهجها وبريقها.

لقد أهر الكوني القارئ الغربي والعربي على السواء من خلال ذاكرة تحمل ما تحمل من المعرفة والتذكر، تولى الاهتمام لمكان نظر إليه إلى زمن قريب أنه مقفر وخطير. إنها الصحراء المنظور اليها بعين خبير يكشف للقارئ خباياها وسحرها وقيمها، ويعيد صياغة تاريخ قبائل الطوارق الذي كاد أن يمحي، ويحفر في الهوية بالبحث عن الذات الجمعية، وعن فردوس الطوارق الأسطوري المفقود " جزيرة واو".

لقد أبهـر الكوني القاري الغربي والعربي بما تحمله ذاكرته من أرث ومعارف، وقدرته على استثمار ثقافة الطوارق من خلال سرد يوظف لغة شفافة ويلبس الحكاية أقنعة ومفاهيم ليصنع عالما تتزاج فيه الفلسفة وروح الرواية في طابع سحري أسطوري.

2- التراكم السردى وأسطرة الواقع

والدارس لأعمال الكوني يصطدم بتنوع المعارف والمرويات، وبالتناص في مجالات مختلفة وفي ميادين متعددة تنم عن موسوعة معرفية، تستغل في كتابة النص الروائي حيث يمتزج فيه الشفاهي بالمكتوب وتنوع الأساطير وتتداخل ويشغل السحري والمدهش مكانة متقدمة. وبلغـة شاعرية مشحونة بالرموز التي تنفتح على دلالات تروم أعمال العقل وتستدعي رؤى فلسفية لإدراك الواقع اللامرئي واللامتناهي.

"...هذه الخبرة الفريدة التي تنقلنا إلى عالم الصحراء، صحراء الطوارق بأساطيرها وأعرافها في مزيج من الحلم والواقع، اختزلها لنا إبراهيم الكوني في لوحة إبداعية وبث الحياة في أجزائها، من خلال نسيج روائي محكم البناء، ولغة شاعرية مشحونة بالرموز والدلالات عبرت عن رؤية فكرية وفلسفية في فهم هذا الواقع اللامتناهي وسبر أغواره، ببراعة تجعلنا نلامس تفاصيله ونسمع أصداؤه وننفعل معه بقسوة تحاكي صعوبة الحياة وجفافها في هذه الصحراء"⁽⁷⁾

فهو يقدم الصحراء للقارئ بالرغم من قساوتها وجديها عالما يعج بالحياة، يمتلك تاريخا وحضارة ضاربتين في القدم وقيم إنسانية بالغة في التجذر، وأهلها دائمو لبحث عن عناصر الحياة، وعن مجدهم الضائع وتاريخهم المنسي، معتمدا على سرد واقعي ممزوج بالخيال يخلق وهما بصريا وأحداثا تنفلت من قبضة القارئ، حيث يتداخل فيها الواقعي واللاواقعي والمرئي واللامرئي.

والصحراء عند الكوني وطن ومنفى، وهوية، فهي حاضرة في كل أعماله، وبعيدة عنه حيث يقيم هناك في جبال الألب بسويسرا، منفاه الذي يلهمه الكتابة. وهو إذ يستحضر الصحراء ومكوناتها، مبرز تاريخها وقيم أهلها وحتى أساطيرها، فإنه في الوقت ذاته يحذر من الخطر الداهم الذي يستهدف القضاء على هذه المقومات التي عرفت خلال الحقبة الاستعمارية إبادة لحيوانات الصحراء واستنزافا لخيراتـها، بل حتى من تخلي أبنائها عنها. وبالتالي يكونون قد خالفوا ما جاء في دستورهم "أنهى" الذي حدد للطارقي نهج حياته.

اذ تحذر روايته "نزيف الحجر" لما سيؤول اليه العالم إذا استمر في تدمير الطبيعة مثلها مثل رواية "التبر" التي سبقت كارثة العالم البيئية الأخيرة. اذ يرى أن الإخلال بوحدة الكائنات هو إخلال بناموس الكون.

وفي رواياته تتعدد الاقتباسات من مخزونه المعرفي سواء كان قرآنا أو سرودا قديمة شفوية ومن المرددات الشعبية للطوارق، أو من ديانات أخرى، فقصة قابيل وهابيل وقتل الأول أحاه هابيل حاضرة في روايته "نزيف الحجر" يتقدمها جزء من آية من القرآن "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ"⁽⁸⁾ ممهدا بها للحكاية الرئيسة في الرواية حيث التماثل بين الإنسان والحيوان، الكاهن والودان على مأساة الموت الذي يخلص الصحراء من عطشها وجدها فتدب الحياة فيها، وهو بذلك يحيلنا على أساطير القدماء حيث توهب القرايين للآلهة، فلا يتحقق الخلاص إلا بها. وهو أيضا بتركيزه على العلاقة بين "اسوف والودان" وتقديس الحيوان يتقاطع مع فوكنر في قصة "الدب" الذي جعل من الغزال والكبش كائنين مقدسين وهدفه من رواية "نزيف الحجر" هو إدانة ما تتعرض له أجمل الكائنات وأندرها كالودان والغزال من قتل وإبادة وهي من أجمل الحيوانات.

وكأني به يقول وماذا يتبقى للصحراء من جمال إن هي فقدت حيواناتها؟، وهو يبرز من خلال الرواية التعبير عن وحدة الكائنات في هذا الوجود وارتباطها ببعضها البعض.

وهو أيضا يحيل على الاقتباس القرآني الذي مهد به، على أن الحيوانات خلقهم الله وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم⁽⁹⁾ بل إن قتل هذه الحيوانات كقتل الإنسان لأخيه الإنسان وهوما أورده دستور الطوارق، لا ينجر عن ذلك إلا الخزي والعار وجذب الطبيعة.

والرواية عنده تلبس رؤى فلسفية يمررها من خلال السرد والنماذج التي تعتنق أفكارا فلسفية، تخلق أسطورة التي تخلق العالم. وهكذا يتحول الجبل إلى أسطورة حين يجعل من الرملة عدوه الذي انتصر عليه بمباركة الآلهة وتحالفها مع الريح. فعاقبت الآلهة الجبال بقطع رؤوسها، التي كانت سلاحها في حث السحب على إسقاط المطر وإحداث الفيضانات⁽¹⁰⁾.

ويظل هذا الصراع بين الجبال والكثبان الرملية أزليا، فتنتصر تارة الجبال ولكن انتصارها لن يكون الا مؤقتا وتنتصر تارة أخرى الكثبان الرملية في اشارة واضحة إلى الصراع الأبدي بين الموت والحياة: "تمتد الجبال الرمادية الأسطورية الغامضة على طول الشريط الشرقي، وتواجهها من الناحية المقابلة كثبان الرمال الذهبية جليلة أيضا متوثبة، متحفزة مستعدة للعراك والانتقام"⁽¹¹⁾.

ولن يكتب للجبال الانتصار إلا بعد تحالفها مع البشر من قبائل الجرمنتين التي تم استقدامها: "الذين نجحوا في السيطرة على الرمال بالمزروعات والمياه، ولكنه كان نصرا مؤقتا"⁽¹²⁾. لأن قوى الجن ستخوض معركة شديدة مع هذه القبائل. وتحضر الأسطورة

والغيبيات فتخرج الأحداث من واقعيتها إلى اللاواقعي وتتناسل الحكايات كمتتالية، فتزرع في القارئ الشك والغموض وتجعله في حيرة من أمره.

ويبدو للقارئ أن كل أبطال الكوني سواء من البشر أو من عناصر الطبيعة مؤسطرة بل أزلية. فمهمد وشاهدا على أزلية المغارة فلا أحد يملك حقيقة هذا المكان بل هو خارج عن الزمان فلا يعرف متى ولد ولا متى مات أو متى بعث.

وقصة الجبل تناسل عنها قصة مخلوقات لا هي بشرية ولا هي حيوانات من خلال الرسوم وتطارد أشباحا يمتزج فيها البشري بالحيواني: قامة مكابرة وفضاء عنيدا متمردا على الحضيض. وسفح مكسو بالحجارة، معتمة اللون، أو شاحبة، مصقولة، مشدوبة حوافها. وهي حجارة تحمل "رسوم أهل زمان" وتتمحور حول رجال يخفون وجوههم بأقنعة، على رؤوسهم تنتصب قرون يحملون في أيديهم الحراب، يطاردون أشباحا نصفها الأعلى مخلوقات بشرية، ونصفها السفلي حيوانات حقيقية"⁽¹³⁾.

وهو حين يوظف "الشق" الذي يستقر فيه أوخيد يترك للقارئ استدعاء معارفه الثقافية والدينية والاجتماعية، لما للشق من إحياءات وظلال ويزيد بما يضيفه من مفردات غموضا وظلالا للمكان فهو جحر وحبس جديد وهو تارة أخرى حصن منيع "سد فوهة الشق بالأحجار، وحشر جسمه في حبسه الجديد. جاد الفضاء الصحراوي على "أوخيد" بالمناعة والحصانة، حيث يصعب اقتحام الكهف من قبل الأغراب، من أهل الواحات والعدو من الغزاة، فكانه نسر في قمة جبل آمن لا يسكنه سوى الجن..."⁽¹⁴⁾.

فالتناص هنا جلي للعيان بين غار حيراء وبين الشق، وإن كان أوخيد وحيدا فإن الغاية تتقاطع وتتمثل في الحصانة والمناعة وصعوبة اكتشافه من الأغراب والعدو خشية بطشهم وإن تغير أسلوب التمويه. فإن كان ربانيا في غار حيراء فإنه من فعل الإنسان في شق أوخيد، وتشبيهه بالنسر يوحى بالحرية والقوة كما توحى عبارة "لا يسكنه إلا الجن" بجلال المكان وغموضه وأسطرته وحتى خطره.

وإذا بالمكان رحم أمه الدافئ "المكان الطفولي، محراب الحب والطهر، والتلقائية، والحميمية والانقطاع إلى عميق الأشياء، وبداياتها"⁽¹⁵⁾.

وهكذا يتمدد أوخيد في الشق كما كان يتمدد في بطن أمه الدافئ والحصين، بالرغم من ضيقه وظلامه، ليستسلم لنوم عميق، لما يوفر المكان من حصانة واطمئنان، بهذا يتحول الكهف والجحر والحبس إلى رحم الأم الذي يوفر الدفء والحنان والأمان. فالمكان عند الكوني يحمل الثنائية المتناقضة الموت والحياة، الحرية والقيود كما يتبين ذلك في رواياته التي تتحدث

الأبداع السردى عند الكونى. مهلة فصل الخطاب

عن الجبل والبئر والصحراء. "تمدد أوخيد في هذا المكان على هيأته الأولى عندما كان جنينا في بطن أمه"⁽¹⁶⁾.

وليس يخفي عن الدارس احياءات البئر ودلالاته الدينية والاجتماعية، فهو يحيلنا على بئر زمزم الذي حفره سيدنا إبراهيم في الصحراء القاحلة بالجزيرة العربية، فدبت فيها الحياة، وهو البئر الذي رمي في غياهبه سيدنا يوسف عليه السلام، وهو مصدر الحياة كما هو مصدر الموت فهو مكان تواصل وتلاقي الناس، كما هو مكان يضع فيه بعض حد لحياتهم. وحوله أيضا تحوم الخرافات والأساطير ليتحول من واقع مرئي إلى خيال.

والفضاء عند الكونى عنصر من عناصر البناء الروائى وهو انتاج لاستعمال تراكمي للدلالة يفيد القارئ في بناء معنى الخطاب الروائى ويشكل مظهرا من مظاهر نشاط القراءة⁽¹⁷⁾.

بل البئر هو علامة متميزة في كتابات الكونى: "نروم القول من خلال هذا الحضور الفاعل للوحدات المكانية خاصة وللفضاء الروائى في المدونة بصفة عامة أنّ المؤلف جعل من الفضاء علامة متميزة في الكتابة الابداعية، وهذه سمة تؤكد التفرد والخصوصية فاستعمال "البئر" هنا يخرج من كونه مكانا قد يوجد في أي فضاء آخر إلى اقترانه بالفضاء الصحراوي اقترانا فنيا معه يكتسب حركة شاملة تقحمه في الفعل الروائى وتجعله حاضرا في بقية عناصره سواء تعلق الأمر بالشخصيات، أو بالزمن، أو المستوى اللغوي، أو المستوى الجمالي، لبنية المدونة، كلا، متفاعلا، ومتسقا، ومتكاملا"⁽¹⁸⁾.

ومهما ضاق المكان أو عمل الروائى على تضيقه، سينفتح هذا المكان على فضاء أوسع من خلال ما يسمح به لأبطاله من الغوص في عوالم لا حصر لها. بل هو كما يرى الأستاذ مرتاض "إن أهم وظيفة من وظائف المكان هي العمل في أغلب الأحيان على السماح للفعل الحكائي من الحدوث"⁽¹⁹⁾.

والمكان عند الكونى سحري وعجائبي، يحمل المتناقضات، فهو وإن كان حصنا منيعا ومكانا يُحتنى به، مثلما احتنى أوخيد بمغارة ممهدو، أو اختياره من لدن شيخ القبيلة "غوما" في مواجهة المستعمرين الفرنسيين كموقع استراتيجي، يوفر الحماية وحتى النصر: "لتكن جبال "الهوجار" حليفنا وساعدنا الأيمن في ذلك"⁽²⁰⁾، بل (الجبال) هي التي حمّتهم من إبادة جماعية ومكنتهم من الانتصار على العدو" في اليوم الثاني حاولت القوات الفرنسية فك الحصار بالزحف شمالا عبر طريق "العوينات"، ولكن نيران القناصة المرابطين في قمم الجبال، خلف الصخور ردتها على أعقابها"⁽²¹⁾. فإن الفضاء يمتد إلى دلالات عديدة من خلال تعمق السارد في وصفه، باستغلال عنصر فيه كالرسومات المنقوشة بأحجاره، ليتحول المكان إلى العجائبي، فالرسومات

تمتد في عمق التاريخ، وتكون فرصة للسارد أن يضيف عليها الغموض ويؤسّطرها، لا بتحويل الواقع إلى أسطورة، بل ليؤسّط التاريخ.

وهكذا يحول "رسومات زمان" إلى لوحة عجيبة تظهر أناس يخفون وجوههم ولهم قرون ويطاردون أشباحا نصفها بشري ونصفها الآخر حيواني. لتشحن اللغة الرسم بما ليس واقعيا، ولتخلق من التاريخ أسطورة. وبذلك يصبح المجال البصري قابلا للتشكيك بل وهما من الأوهام. وواقعا سرديا يخلقه تشكل اللغة. إذ لا يمكن القبض على الحقيقة بأعيننا، بل للحقيقة أوجه متعددة، فالخطاب اللغوي بما يوليه من قيمة إخبارية للأشياء والكائنات والإنسان والجماد، هو الكفيل بترسيخ صورة عنها: "وليس الآخرون، بالنسبة إلينا، ما رأيناه فهم بأعيننا وحسب، بل هم إلى ذلك ما أخبرونا به عن أنفسهم، أو ما أخبرنا به غيرهم عنهم، وليسوا كذلك أولئك الذين عرفناهم، بل الذين ترامت إلينا أخبارهم. وهذا لا ينطبق على الناس وحدهم، بل ينطبق كذلك حتى على الأشياء والأماكن، كالأماكن التي لم أذهب إليها مثلا، ولكن وصفت لي"

وغني عن الذكر بأن الحيوانات عند الكوني تجسد لفكرة المكان (الصحراء) ومن ثم كانت لها قداستها، بل هي تمثل القيم الثقافية والفلكلورية لسكان الصحراء. وتعبّر عن العلاقة الوطنية التي لا انفصام لها، لا تبنى على أساس المصالح الدنيوية، بل هي عشق أبدي توفره الصحراء المنفتحة والمليئة بالأسرار.

وهكذا نقف على تلك العلاقة الحميمة في "التبر" بين الإنسان والجمل "الأبلق" فهو يحمل بدءا من مواصفاته الخارجية وصفاته النبيلة كل القيم الإنسانية المادية والمعنوية: "أبلق رشيق ممشوق القوام، نبيل، شجاع وفي..."⁽²²⁾.

وهو صورة صاحبه ومبعث الاحترام والتقدير: "يقولون إن المهري مرآة الفارس. إذا أردت أن تنظر في الفارس وتقف على خفاياه، فتفقد فرسه عليك بالمهري إذا أردت أن تعرف صاحبه"⁽²³⁾، بل هو مصدر غيرة لزوجة ترى أن اهتمام زوجها بجمله أكثر من اهتمامه بها، بالرغم من أنه (المهري) كان مصدر إعجابها وزوجها وتعلقها به ليتحول كل ذلك إلى عداوة حين يتعلق الأمر بزحزحة مكانتها وبؤرة اهتمام زوجها بها: "إذ إن غيرتها من الأبلق ليست وليدة اليوم، فهذا الفرس البهي الذي استكمل به فروسيته قبل الزواج ساهم في تعلقها به. أصبح بعد الزواج ضرة وغريما بل عدوا"⁽²⁴⁾. وقد تتعدى قيمة الحيوان الإنسان بكثير وهوما يقره السارد: "الحيوان خير صديق، الحيوان أفضل من الإنسان"⁽²⁵⁾.

ويجسد ذلك التماهي والتوحد بين أوخيد و"الأبلق" حين يصاب الأخير بالجرب فيظهر التغيير على ملامح "الأبلق" الخارجية تماما كما يحدث للإنسان، فيوحي الوصف الخارجي بألم أوخيد وحزنه، بل تمزق أحشائه لما حدث لأخيه "الأبلق":

"اختفت البقع البديعة من الجسد الرمادي. اختفت النظرة الزكية في العينين الساحرتين. القوام الرشيق المشقوق تحول إلى هيكل أسود مترهل مبقع بالظلمة. خيال شاحب وبائس. لكائن آخر. سبحانه الله كيف يصنع المرض المخلوقات كائنات أخرى مختلفة. المرض يصنع ذلك مع الناس أيضا المرض الطويل يفعل ذلك"⁽²⁶⁾.

وحين يبحث عن دواء يخلص "الأبلق" من مرضه توصف له عشبة "آسيار"⁽²⁷⁾ والتي يُحذر من مفعولها أو بلغة الطب من أعراضها الجانبية، ومع ذلك لم يجد بدا من المعالجة بها وفي الوقت ذاته ينذر جملا للآلهة القديمة "تاتيت" متوسلا لها أن تشفي جملة، ليقدمه لها نذرا بعدها في صحة وعافية. "يا ويلي الصحراء اله الأولين. أنذر لك جملا سميئا، سليم الجسم والعقل. اشف أبلقي من المرض الخبيث واحمه من جنون آسيار. أنت السميع. أنت العليم"⁽²⁸⁾.

يصاب الجمل بالجنون جراء تناوله "آسيار" فيفسر ذلك أوخيد بالحسد حين يرى جملة يفقد صوابه ويعدو كالمجنون جراء تأثير الدواء. "الحسد أقوى من السم في تعاليم العرافين، عين الحسود أفتك من السهم المسموم"⁽²⁹⁾، وحين يتعذر عليه التحكم فيه يربط جسمه بذيله ولجامه، فيتمزق جسد أوخيد جراء سحبه وهو بفعله هذا يدرك بأنه إذا انتهت حياة أحدهما انتهت حياة الآخر. هذا التلاحم والتماهي وليد عشرة طويلة مليئة بالوفاء، مليئة بالحب والاخلاص.

وبعد هذا الاختبار العسير الذي أثبت مدى العلاقة الوطيدة التي تجمع بينهما، واستعداد أوخيد للتضحية من أجل "الأبلق"، يشفى الجمل وتسقط الجلدة الجرباء، وكأنه يعيش حياة جديدة، تماما كما يفعل الثعبان رمز الحياة المتجددة وليد الأساطير القديمة "الجلدة الجرباء سقطت في الطريق. الأبلق تحرر من جلده كما يتحرر منها الثعبان"⁽³⁰⁾.

ويرد الأبلق الجميل إلى أوخيد حين كاد أن يقتله العطش، فينقذه من الموت المحقق. وتمتزج دماؤهما في إشارة إلى الرابطة القوية التي تجمعهما. فيتم التماهي بمعناه الأعمق. "شعر أن دمهما المتخثر اللزج يتمازج الآن ويختلط، هذا ما تسميه العجائز بالتآخي. عهد الأخوة. عهد الوفاء الأبدي. التحم الجسد بالجسد واختلط الدم بالدم"⁽³¹⁾.

وليس خفيا على دارس الأدب العربي تلك العلاقة التي ربطت البدوي منذ غابر التاريخ بناقته وبعيره، وما كتبه الشعراء عن نوقهم، والمجال لا يتسع هنا لذكر ذلك، فاني أكتفي بقول الشاعر الجاهلي الذي يظهر ذلك التماهي بينه وبين بعيره حتى في أخص العواطف⁽³²⁾:

وأحبها وتحبني ويجب ناقتها بعيري

ويتخذ تماهي الحيوان "الودان" في الإنسان الطارقي شكلا آخر، لما لهذا الحيوان من مكانة وتقديس، فحين خلف أسوف وعد أبيه، وأراد اصطيد الودان المقدس، لم يجد الا هذا

الحيوان لينقذه وهو على قمة الهاوية بالحبل نفسه الذي أراد اصطياده به، لحظتها يتمظهر الودان في صورة أب عطوف، حنون ينجيه من الهلاك المؤكد. لحظتها تتشابك أسئلة السارد: "من منهما الضحية؟ من منهما الجلاذ؟ من منهما الإنسان؟" (33)، لتتساءل عن جوهر المعاني وعمقها، وزيف كثير من الأوصاف والموصوفات.

إنها لحظة عودة الصواب إلى أسوف، عودته إلى قيم الصحراء وتعاليم دستورها، فما عاد يرى في الودان صيدا، بل أبا يغدق عليه بالعطف والحنان. فلم يترىص الإنسان بأخيه الإنسان؟ "أنت أبي لقد عرفتكَ. انتظر أريد أن أخبرك..." (34).

لقد قطع أسوف على نفسه جراء هذه الحادثة ألا يأكل لحما مطلقا بعد ذلك في لحظة عودة الصواب إليه واستيقاظ لضميره ليقر بأن ذلك ليس مقززا فحسب بل محرما. "أصبحت اللحوم تقززهُ، واندھش كيف كان يستطيع أكل اللحم، كيف يستطيع المخلوق أن يأكل لحم مخلوق؟" (35).

لقد أصبحت زيارات أسوف للودان ولباقي الحيوانات سبيلا لتوطيد علاقة حميمية، تسودها الثقة، والتفاهم فيشكو إليها همومه فتعزيه بمختلف لغاتها.

"منذ حادثة الهاوي، منذ أن رأى أباه في عيني الودان العظيم الذي أنقذه من الموت ثم تسلل إليه قبل أن يغيب عنه الوعي. تجيئه القطعان في المرعى، تختلط بالماعز، وتقبل نحوه ذكورها، تشمشم ثيابه بخياشيمها، وتتأمله بعيون وديعة غامضة، تنطق بألف لغة، وتحدث بألف لسان دون أن يصدر عنها صوت، ثم تمضي لترتع في الأحراش. في البداية كان يخرس، وتنشل أطرافه من الدهشة. ومع الوقت تعود، وأصبح يداعبها ويحدثها، ويقص عليها الحكايات، ويشكو لها الهموم: قسوة الصحراء وخشيته من معشر الإنس، فتعزيه بعيونها التي تنطق بألف لغة وتتكلم بألف لسان دون أت تنبس" (36).

لقد تصالح أسوف مع نفسه وعاد إلى تعاليم وقيم مجتمعه الطارقي، ليعيش حياة هائلة بين الكائنات الأخرى في وئام وانسجام، في تلاحم وتماه، في عيش رغد.

أما الغزالة فبالرغم من أنها اختارت رابطة الدم في علاقتها بالإنسان من خلال ارضاعه، فإن قابيل تنكر لكل ذلك وقتلها، ضاربا عرض الحائط الميثاق الذي عقده مع جدتها وهي التي كانت تدرك أن لا رابطة أقوى من رابطة الدم، ولذلك أوصتها بعقد هذه الرابطة بينها وبين الإنسان.

"هناك سر آخر في التضحية. القربان سيفتح عهدا بين نسلك وبين ابن آدم، سيحرم عليه دم ابنك وأبناء أبناء ابنك إلى أبد الأبد. هذا هو العهد حصن القربان وميثاق الدم

الأبداع السردي عند الكوني. مهلة نصل (الطلاب)

واللعنة سوف تلاحق من تسول له نفسه أن يخون رباط الدم، فلا يوجد في الدنيا كلها أقوى من رباط الدم وليس هناك جريمة أبشع من خيانة هذا الرباط"⁽³⁷⁾.

لم يقتل قابيل الغزالة فحسب بل أكل لحمها بالرغم من صراخها وعوائها كالذئب، ولم يراع الميثاق المعقود، فخان أقدس رابطة، رابطة الدم فكانت نهايته الجنون.

لقد حفر الكوني في المخيال الشعبي الطارقي، وفي تاريخ هذه القبائل، وفي معتقداتها وقيمها وأعرافها وربط ذلك بعلوم متعددة أخرى كالأنثروبولوجيا وعلم اللاهوت وعلم الآثار وغيرها من العلوم الأخرى. كما استعان بما اختزنه ذاكرته من كل المرويات الشفوية لهذه القبيلة، ومما قرأه من الآداب العربية والأجنبية، وألبسها لبوس الفلسفة والأسطورة لبيدع رواية استثمرت فيها سرود عديدة وفي مجالات متعددة لا ليعيدها باهتة في بعدها الفني والتاريخي أو ينسخها نسخا كي يدعي العودة إلى التراث، أو ليستعرض مخزونه المعرفي أو ليتباهى باستيعابه أحدث النظريات السردية، بل أعاد صياغتها وفق ما يقتضي فن الرواية في تشاكل عجيب وتراكم للسرد يظهر مدى تحكم الكوني في أدواته الفنية، وقدرته الإبداعية التي جعلت من الصحراء أسطورة لتُبعث من جديد كونها الأصل والرمز والمكان الوحيد في العالم الذي مازال يحفظ القيم الإنسانية العظيمة التي يسود فيها التألف والمحبة ليس فقط بين الإنسان والحيوان بل يمتد ذلك إلى سائر العناصر الطبيعية جمعا.

إن المتأمل في روايات الكوني يجد نفسه أمام طرح لرؤى فلسفية تتميز بعمقها الإنساني الكوني، فهو يأخذ بكل الأفكار الفلسفية التي أدانت ما فعله الإنسان بنفسه وبالأخرين وبالطبيعة رغبة منه لبلوغ ما يعتقد أنه حياة الرفاهية فيعمل على تحطيم أهم ما يضمن العيش والبقاء وهو الطبيعة.

فهو يأخذ بأفكار تلك المنظمات التي تعمل من أجل توقف ما يدمر الطبيعة كمنظمة غرينبيس "Greenpeace"⁽³⁸⁾ وأفكار أخرى تعمل جاهدة على الحفاظ على ما تبقى من أنواع الحيوان.

وأهم من ذلك كله هو ما يتعرض له الإنسان من مسخ وتدمير من خلال حضارة لا تأخذ بعين الاعتبار خصوصية الحياة وحرية اختيار نمط العيش فتعمل بقيودها المختلفة، وأساليبها المتباينة على فرض نمط عيش لا يتوافق وعقليته

خاتمة:

إن استغلال الكوني لما تراكم عنده من سرود بطريقته الخاصة والتي لا تعيد تلك السرود باهتة ومكشوفة، بل تتجاوزها بطريقة فنية وبقدرة إبداعية توهم القارئ بأن ما يقرأه هي نصوص قد مرت به، أو أمر به ما يشبهها ويتقاطع معها، ولكن سرعان ما يتكشف له بأنها

مغايرة تماما. فالأساطير التي يلجأ إليها في كتابته تبدو أنها تتشابه مع أساطير معروفة، وفي حقيقة الأمر أنها من خلق وإبداع إبراهيم الكوني. والأمر نفسه يلاحظ في أساليب سردية يتوهم القارئ بأنها هي لذلك المبدع، أو ذاك الروائي لتتكشف له الحقيقة بأنها من إبداع إبراهيم الكوني.

إن هذا النوع من الكتابة يفسح المجال للمبدعين أن يحذوا حذو إبراهيم الكوني من أجل سرد يستغل السرود التي تراكمت عندهم، فلا تكون كتاباتهم متقاطعة مع سرود غيرهم إلى حد التشابه، ولا إلى تناص يبدو أنه سرقة أكثر منه توارد خواطر.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- هدى أبو غنيمه " تجليات الصحراء في أعمال منيف الكوني " عود الند مجلة ثقافية فصلية ISSN 1756-4212 العدد الفصلي 6: خريف 2017
- 2- المرجع نفسه
- 3- مقابلة مع إذاعة سويسرا مارس 1996
- 4- رواية "المجوس: للكوني 155/2 وهي رواية في جزئين ط1 الدار الجماهيرية طرابلس ودار الآفاق الجديدة المغرب 1991.
- 5- مجموعة قصص "القفص" للكوني. مؤسسة رياض الرئيس للنشر ط1، تشرين أول (نوفمبر) 1990. قصة "مولد الترفاس"، ص: 9؛ و"نذر" البتول، ص: 1
- 6- إبراهيم الكوني رواية المجوس الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس ودار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء 1991 ج2، ص: 327
- 7- عوني القاعوري المكان في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني مجلة دراسات - العلوم الإنسانية والاجتماعية - المجلد 27 رقم 01 فبراير 2000
- 8- سورة الأنعام الآية 37
- 9- كما ورد في تفسير القرطبي للآية الكريمة في كتابه "الجامع لأحكام القرآن
- 10- إبراهيم الكوني " المجوس " الوقواق، ص: 129
- 11- الأسطورة المذكورة في " نداء الوقواق " من، ص: 99 إلى 102 ثم، ص: 129
- 12- حيث تشير الأسطورة إلى تلك الخصومة التي وقعت بين القبائل وقوى الجن حيث استمرت المعركة بينهما سنين عديدة
- 13- البئر، ص: 68
- 14- التبر، ص: 146
- 15- د. زهرة سعد لاوي - أساطير الصحراء ونداء الحرية في الكتابة الروائية عند إبراهيم الكوني، ص: 131
- 16- البئر، ص: 151

- 17- يراجع حسن نجدي - شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية - الدار البيضاء المركز الثقافي العربي 2000، ص: 68.
- 18- د. زهرة السعد لاوي - أساطير الصحراء ونداء الحرية في الكتابة الروائية عند إبراهيم الكوني، ص: 134
- 19- د. عبد الملك مرتاض في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب العربي 2000
- 20- الكوني، إبراهيم "البئر" دار التنوير بيروت ط. 3. 1992، ص: 33
- 21- البئر، ص: 74
- 22- الكوني، إبراهيم "التبر" دار التنوير للطباعة والنشر ط 3، ص: 2
- 23- المصدر السابق، ص: 16
- 24- التبر، ص: 37
- 25- م ن، ص: 20
- 26- رواية "التبر"، ص: 25
- 27- يوضح لنا الكوني في هامش، ص: 20 يعتقد أن "" آسيار " نه بقايا السلفيوم. وهو نبات أسطوري يعطي طافة هائلة. بل هو دواء سحري لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم... ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سر التحنيط.
- 28- رواية "التبر"، ص: 30
- 29- التبر، ص: 37
- 30- رواية "التبر"، ص: 37
- 31- رواية "التبر"، ص: 47
- 32- المنخلّ البشكري شاعر جاهلي، ينظر الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ، 393/1.
- 33- إبراهيم الكوني نزيل الحجر، ص: 74
- 34- م ن، ص: 75
- 35- إبراهيم الكوني نزيل الحجر، ص: 86
- 36- إبراهيم الكوني نزيل الحجر، ص: 99-100
- 37- نزيل الحجر، ص: 121
- 38- غرينبيس: GREEN PEACE هي منظمة بيئية عالمية غير حكومية وتهدف إلى ضمان قدرة الأرض على تغذية الكائنات الحيّة بكافة تنوعها